

الحرية والعدالة في الشرق الاوسط

يقلم: برنارد لويس

المصدر : مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية

ترجمة : مركز الكاشف للمتابعة والدراسات الإستراتيجية

إصدار: مايس/ حزيران ٢٠٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العدد:

في هذا العدد تمت ترجمة ملخص دراسة من دراسات المستشرق والمؤرخ اليهودي المعروف برنارد لويس والمنشورة في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية، وهي من أهم إصدارات مجلس العلاقات الخارجية، هذا المجلس الذي يدخل أغلب أعضاؤه الحكومة وفي مواقع مؤثرة وحساسة. برنارد لويس شخصية تستحق التوقف عندها طويلاً، لما لها من تأثير على صناعات القرار وبما تملك من معلومات موسوعية ومتخصصة بشؤون المنطقة والعالم الإسلامي. وسيصدر عدد خاص من كراسة المتابع الإستراتيجي يتناول هذا الموضوع من جوانب مختلفة بإذن الله. وفيما يلي سنورد بعض ما قيل عن هذه الشخصية المؤثرة لمعرفة أهميتها:

ولد برنارد لويس بلندن في مايو ١٩١٦، لأسرة يهودية اشكنازية، ولا تتوفر لدينا معلومات عن البلد الذي نزلت منه إلى بريطانيا، وتاريخ ذلك النزوح. فلم يذكر برنارد لويس في سيرته الذاتية المتاحة على موقع جامعة برستون بالشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) شيئاً عن أصول عائلته، ولم يُشر إلى طفولته وصباه وتعليمه العام، ولكنه اكتفى بالإشارة إلى تعليمه العالي. ولكن التحاقه بجامعة لندن في أوائل الثلاثينيات يوحي بانتمائه إلى أسرة ثرية. وقد حصل على درجة الليسانس الممتازة في التاريخ من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٣٦. كما حصل على درجة الدكتوراه في تاريخ الإسلام من نفس المدرسة عام ١٩٣٩. وكان موضوع رسالته عن الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين. وخلال إعداده لرسالة الدكتوراه، قضى فترة بجامعة باريس، كما قام بجولة في بلاد الشرق الأوسط استغرقت بضعة شهور.

وقبل حصوله على درجة الدكتوراه بعام واحد، عُيّن مدرساً مساعداً بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، غير أنه ترك العمل بالجامعة خلال سنوات الحرب (١٩٤٠ - ١٩٤٥) ليلتحق بخدمة المخابرات البريطانية. وبعد الحرب، عاد للعمل بالجامعة حتى عام ١٩٧٤. ولكن صلته بالمخابرات البريطانية لم تنقطع، فقد ظل مرجعاً هاماً يستشار في كل ما اتصل بشؤون الشرق الأوسط. ولعل ذلك يفسر انصرافه عن دراسته تاريخ الإسلام الوسيط، واتجاهه -بعد الحرب العالمية الثانية- إلى دراسة تاريخ الشرق الأوسط الحديث، فنشر كتاباً عن "قيام تركيا الحديثة"، وآخر عن "تكوين الشرق الأوسط الحديث"، وثالث عن "تاريخ الشرق الأوسط في الألفي عام الأخيرة"، جاء في حقيقة أمره طبعة معدلة لسابقه، ثم كتاب "تعدد الهويات في الشرق الأوسط". ووظف لويس رصيده المعرفي عن تاريخ الأفكار التي يطرحها في كتبه، فرصده المعرفي عن تاريخ الإسلام يشي بالقصور في متابعة ما حققه هذا الحقل الأكاديمي من تطور بعد الحرب الثانية في الغرب ذاته.

والأفكار التي يطرحها في كتبه في الثلاثة عقود الأخيرة موحية لصانع القرار الغربي، تستهدف إثارة مخاوف القراء من الإسلام وأهله.

وبعد أفول نجم الهيمنة البريطانية في الشرق الأوسط، واضطرار بريطانيا إلى تنفيذ سياسة "الانسحاب شرق السويس" عام ١٩٧١، ليسدل بذلك الستار على النفوذ البريطاني في الإقليم، وتصبح الولايات المتحدة هي الوريث الطبيعي لحماية المصالح الغربية في المنطقة. وجد برنارد لويس أن مكانه الطبيعي هناك، في الولايات المتحدة، حيث مركز التأثير في صناعة القرار الغربي في الشرق الأوسط، وخاصة أن صهيونية الرجل كانت حقيقة راسخة أكدها في كتاباته ومقالاته الصحفية، ومن ثم جاء انتقاله إلى جامعة برنستون عام ١٩٧٤ أمراً منطقياً، بعدما ترك قسم الشرق الأدنى بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن خلفاء من المشايخين للصهيونية من أمثال فاتيكوتس، وياب.

وظل برنارد لويس أستاذاً لدراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون حتى تقاعد رسمياً عام ١٩٨٦ عند بلوغه سن السبعين، ولكنه أصبح منذ ذلك التاريخ أستاذاً فخرياً **Professor Emeritus** ، وهو مركز لا يشغله إلا العلماء البارزون. ولكنه يحتل -في الحياة الأكاديمية- موقعاً مؤثراً باعتباره -على حد تعبير تولسون- حجة ومرجعاً في الشؤون الإسلامية والشرق أوسطية لا غنى عنها لصانع القرار الأمريكي.

يعتبر برنارد لويس شخصية غير عادية في عالمي الأكاديميا والإنتليجنسيا الغربية. ولد في إنكلترا عام ١٩١٧، لعائلة يهودية أشكنازية. حين اندلعت الحرب العالمية الثانية، ترك التعليم الجامعي، الذي كان قد بدأه لتوّه، ليعمل ضابطاً في الإستخبارات العسكرية البريطانية، ثم عاد، غداة انتهاء الحرب، إلى منصبه كأستاذٍ محاضرٍ في جامعة لندن، رغم أن الكثيرين من معارفه يؤكدون على استمرار صلاته بالمؤسسة الإستخبارية البريطانية حتى يومنا هذا.

انتقل برنارد لويس في منتصف السبعينات إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أصبح بروفيسوراً محاضراً في جامعة برنستون، واحدة من كبريات الجامعات الأمريكية الثمانية، المسماة "آيفي ليغ" (تضم، إلى جانب برنستون، جامعات براون، كولومبيا، كورنيل، دارتموث، هارفارد، بنسلفانيا ويال). في العام ١٩٨٢ حصل على الجنسية الأمريكية، وبعد تقاعده الرسمي، عام ١٩٨٦، حافظ على مقعده الفخري في برنستون حيث يقوم بأبحاثه التاريخية ويصدر كتبه ذات الإنتشار الواسع

والتأثير الكبير في صناعة الرأي والقرار في الولايات المتحدة والغرب عامةً.

تضم مروحة أصدقائه ومعتنقي أفكاره، إلى الكثيرين، ديك تشيني (نائب الرئيس الأميركي)، كارل روف (مستشار الرئيس)، ريتشارد بيرل (الرئيس السابق للجنة التخطيط الإستراتيجي في البنتاغون)، بول وولفوويتز (نائب وزير الدفاع)، جيمس ووزلي (المدير السابق لوكالة الإستخبارات المركزية وعضو مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات)، شمعون بيريز وأحمد الجلبي...

قال بول وولفوويتز وزير الدفاع المساعد:

(لقد تمكن برنارد لويس في شكل باهر من وضع علاقات وقضايا الشرق الأوسط في سياقها الأوسع، وبفكر موضوعي وأصيل ومستقل دوماً. لقد علمنا [بنا] برنارد كيف نفهم التاريخ المعقد والمهم للشرق الأوسط ونستعمله لتحديد خطوتنا التالية لبناء عالم أفضل لأجيال عدة).

ويشكل (مشروع القرن الأميركي الجديد) الإطار لهذا التحالف، حيث وُجّهت في شباط (فبراير) ٢٠٠١ رسالة الى الرئيس بيل كلينتون تطالب باتخاذ عمل عسكري، من ضمنه القصف الجوي الاشباعي، لاطاحة النظام العراقي. وكان من بين الموقعين اضافة الى برنارد لويس ورامسفيلد وولفوويتز، شخصيات متشددة اخرى تسلمت أهم المواقع في ادارة بوش، مثل وزير الدفاع المساعد دوغلاس فايت، واليوت أبرامز الذي تسلم أخيراً منصب المستشار الرئاسي الخاص لشؤون الشرق الأوسط، وزالماي خليل زاده ورئيس المجلس الاستشاري للدفاع ريتشارد بيرل ووزير الخارجية المساعد ريتشارد بولتن.

وحاجج لويس في هذه الاجتماعات المهمة، والأخرى الكثيرة التي تلتها، بأن هجمات ١١ / ٩ برهنت على الخطر على الغرب في حال حصول (الارهابيين الاسلاميين) على أسلحة الدمار الشامل من العراق أو سورية أو إيران. وركز في نداءاته الى الادارة وفي عدد من المقالات على أنه لا يمكن للولايات المتحدة اظهار الضعف تجاه العرب والمسلمين. وقال مسؤول أميركي لمجلة (نيويوركر) في نيسان (أبريل) الماضي أن لويس صرف المخاوف من اثاره غضب الشارع العربي بالقول: (لا شيء مهماً في ذلك الجزء من العالم سوى الإرادة الحازمة والقوة).

وفي مؤتمر بعنوان (اليوم التالي: التخطيط لعراق ما بعد صدام) نظّمه معهد (أميركان انتربرايز) اليميني في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٢ مفتتحاً به سلسلة من الندوات عن الموضوع، طرح لويس نظريته القائلة بأن معارضة التدخل العسكري الأميركي يعني رفض الديمقراطية في المنطقة.

المعروف عن لويس انه خدم الدولة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية. وهو لا يكتفي بالحنين الى تلك الأيام بل يقدم خدماته بحماس للامبراطورية الأميركية الجديدة أملا في انها ستواصل المسيرة التي تخلى عنها البريطانيون والفرنسيون.

أثبت لويس عن قدرة كبيرة، وشبه فريدة بين أترابه من المستشرقين المحدثين. كما كشف عن موسوعية هائلة في البحث وجمع مواد التاريخ والإجتماع في العالمين العربي والإسلامي. فلقد اختار المناسب منها للفكرة المطروحة والمعالجة، ثم قام بتشريحها وتحليلها وتقديمها للقارئ الغربي كمادة ثقافية جذابة- وليس أكاديمية باردة فحسب، وذلك بأسلوب وشكل وإطار من الموضوعية- المثيرة والمنطق-ال جذاب واللغة-المبسطة، أو "التبسيطية" كما يتهمه ناقدوه، محاكياً بذلك العقل والغريزة معاً وجامعاً أحداث الحاضر والتاريخ في حزمة واحدة، وهو ما عجز عنه، أو لم يتجرأ على مقارنته، الباحث الآخرون من قبله. فقد فهم لويس منذ أن جاء إلى الولايات المتحدة، وربما كان ذلك من أسباب قدومه إليها أيضاً، أن الأفكار والمبادئ التي تنتجها النخب الفكرية، بذهنية ولغة أكاديمية نخبوية صافية، غير قادرة، على الأقل في المجتمعات الديمقراطية الحرة، على التأثير العميق والسريع في الثقافة العامة وصناعة الرأي، وبالتالي في صناعة القرار.

الرجل الذي كان وراء غزو العراق

صنّدي تلغراف، ١٥ فيرلير

تتوجه انظار العديد من المتابعين للشان العراقي هذه الايام الى مصدر الالهام بالنسبة لواضعي مشروع غزو العراق من المحافظين الجدد الامريكيين، واقصد بذلك برنارد لويس المؤرخ الغربي الاول للاسلام الذي ترك اثراً عميقاً على نمط التفكير في البيت البيض والبنّتاغون بشأن الشرق الأوسط ممّنذ تاريخ ١١ سبتمبر.

والواقع إن محركي خيوط اللعبة السياسية هم من يسعى دوماً إليه، فريتشارد بيرل وولفويتز

وإليوت آدامز كلهم لجئوا إليه طلباً للمعرفة عن الشرق الأوسط منذ السبعينات وأعجبوا بطروحاته .

ترددت الأخبار إذاً عن قرب برنارد لويس في السنين الأخيرة من آذان صانعي القرار في الولايات المتحدة، كلما تعلق الأمر بمصالح أميركا في الشرق الأوسط وعلاقتها بهذه الدولة العربية أو تلك، وذلك بعد انتقال الرجل من لندن، حيث كان يعمل استاذاً في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، القريبة آنذاك بدورها من آذان وزارة الخارجية البريطانية، إلى جامعة برينستون في الولايات المتحدة.

وقد تهافت على دعم هذه الاستراتيجية عدد كبير من المفكرين ومنهم برنارد لويس؛ إذ يقول بول ولفوفيتز وزير الدفاع المساعد للولايات المتحدة: "لقد تمكن برنارد لويس الذي يبلغ ٨٦ سنة -بشكل باهر- من وضع علاقات وقضايا الشرق الأوسط في سياقها الأوسع وبفكر موضوعي وأصيل ومستقل دوماً... لقد علمنا برنارد كيف نفهم التاريخ المعقد والمهم للشرق الأوسط ونستعمله لتحديد خطوتنا التالية لبناء عالم أفضل لأجيال عدة"(!). ولفوفيتز وبقية يمين الإدارة الأمريكية الجديد مدينون لهذا المؤرخ من جامعة برنستون، لأنه قدم تبريراً تاريخياً للحرب على الإرهاب وبرز بصفته المنظر الأيديولوجي الرئيس لغزو العراق .

وقد أصبح كتاب لويس (ماذا كان الخطأ: التأثير الغربي والتجاوب الشرق أوسطي) بمثابة بيان للداعين إلى التدخل الأمريكي تحت شعار إقامة الديمقراطية في الشرق الأوسط .

معهد المشروع الامريكي للابحاث السياسية
العامّة

الحرية والعدالة في الشرق الاوسط

برنارد لويس

من مجلة الشؤون الخارجية

مايس/ حزيران ٢٠٠٥

ملخص : إن القول بأن الدكتاتورية

هي طريقة متأصلة في ادارة الامور في

الشرق الاوسط ادعاء غير صحيح. وبيّن

جهلاً بتاريخ العرب ، واهانة لحاضرهم ،

وعدم الاهتمام بمستقبلهم . ان ايجاد نظام

ديمقراطي سياسياً واجتماعياً في العراق او اي

مكان اخر في المنطقة لن يكون سهلاً ولكن

ممكناً . وهناك اشارات متزايدة على انه قد بدأ

فعلاً .

برنارد لويس ، بروفيسور فخري في

دراسات الشرق الاوسط في جامعة برنستون .

وهذه المقالة مجتزئة من محاضرة القاها في

٢٩/٤/٢٠٠٤ كجزء من سلسلة المتحدثين

التميزين روبرت جي وبيلوسكي جي آر .

من مدرسة الليوت للشؤون الدولية ، جامعة

جورج واشنطن .

تغيير المفاهيم

يعتبر التاريخ عند المسلمين ، كما

عند غيرهم ، من الامور المهمة . ولكنهم

يتميزون بدراستهم له بأهتمام خاص ووعي

شديد . وتعتبر رسالة الرسول محمد وبناءه

للمجتمع والدولة الاسلامية وتوسيعهما ،

وتشكيله للشريعة المقدسة واحكامها من

الاحداث التاريخية ، حيث يتم التعرف عليها

من ذاكرة التاريخ او من المدونات، وتروى

وتناقش من قبل المؤرخين منذ وقت مبكر من

التاريخ الاسلامي . في الشرق الاوسط المسلم

لايزال المرء يجد حوارات حادة بل حتى

عداءات مريرة حول حوادث جرت قبل قرن

أو احياناً قبل اكثر من ألف سنة . هذه

الحوادث تدور حول ما حدث في تلك الفترة

الزمنية واهميته وصلته بما يجري . وقد

اكتسب هذا الوعي التاريخي ابعاداً جديدة في

العصر الحديث . وقد عانى المسلمون

وخصوصاً في الشرق الاوسط من تجارب

جديدة غيرت رؤياهم عن انفسهم وعن العالم

واعادت تشكيل اللغة التي يناقشون بها هذه

الامور .

في عام ١٧٩٨ وصلت الثورة الفرنسية الى

مصر على شكل قوة استكشافية صغيرة يقودها

جنرال شاب اسمه نابليون بونابرت . غزت

هذه القوة مصر واحتلتها وحكمتها لعدة سنوات

من دون اي عناء . وقد اعلن الجنرال

بونابرت بتفاخر انه قد جاء (باسم الجمهورية

الفرنسية القائمة على مبادئ الحرية والمساواة)

وبالطبع فقد وزع هذا الاعلان باللغة الفرنسية

وترجمه الى اللغة العربية . لقد جلب بونابرت

مترجميه للغة العربية معه .

إن الاشارة الى المساواة لم تكن بمشكلة ،

فالمصريون كغيرهم من المسلمين يفهمونها

جيداً . فالمساواة بين المؤمنين كانت مبدأ

اساسياً من مبادئ الاسلام الذي بني عليها في

القرن السابع عشر ، و هذا مغاير تماماً لكل

من النظام المنغلق في الهند الى الشرق

والارستقراطية المستنثرة في العالم المسيحي

كلمتي " العبودية " و " الحرية " تستعمل، حتى وقت قريب، للكناية عن الحكومه الصالحه والطالحه .

وقد استمرت هذه الحيرة حتى وجد عالم مصري متميز جواباً لها . انه الشيخ رفاعه رافع الطهطاوي، فقد كان هذا العالم استاذاً في جامعة الازهر العريقة في اوائل القرن التاسع عشر وكان حاكم مصر قد قرر ان الوقت قد حان لمحاولة للحاق بركب الغرب ففي ١٨٢٦ ارسل اول دفعه من ٤٤ طالباً مصرياً الى باريس . رافق الشيخ طهطاوي هذه البعثه و مكث في باريس حتى عام ١٨٣١ ، و يمكن تشبيه دوره فيها بالقسيس فقد كان يعنى بالشؤون الروحية للطلاب ويحرص على عدم انحرافهم - وهي مهمة لم يكن لها معنى في باريس في ذلك الوقت . وخلال مكوثه في باريس بدى و كأنه يتعلم اكثر من اي واحد من مرافقيه .

وكتب هناك كتاباً رائعاً دون فيه انطباعاته عن فرنسا ما بعد الثورة . وقد نشر الكتاب في القاهره بالعربية عام ١٨٣٤ و بالتركية المترجمة عام ١٨٣٩ و بقى الكتاب لعدة عقود المصدر الوحيد بين يدي القارئ المسلم في الشرق الاوسط الذي يصف بلداً اورياً حديثاً . وقد خصص فيه طهطاوي فصلاً عن الحكومة الفرنسية وصف فيه شغف الفرنسيين بالحديث عن الحرية .

ومن الواضح انه قد شارك في البداية في الحيرة العامة السائدة عن علاقة حالة ان لا تكون عبداً مفهوم السياسة ثم انه بعد ذلك فهمها ، ثم شرحها قائلاً : عندما يتحدث

الى الغرب . وفي الحقيقة فقد طبق الاسلام المساواة بأصرار وتوصل الى نجاح منقطع النظير بالالتزام بها ، و من الواضح ، ان وقائع الحياة تكسر الفوارق - و على الاخص الاجتماعية و الاقتصادية منها و احياناً العرقية و العنصرية - و قد كانت هذه جميعها تشكل تحدياً للقيم الاسلامية و لم تصل ابدأ الى مستويات العالم الغربي .

وكانت هناك ثلاثة استثناءات لم تشملهم المساواة في الشريعة الاسلامية ؛ طبقة العبيد الدنيا و النساء و المشركين ، غير ان هذه الاستثناءات لم تكن ملحوظة بصورة بينة . فلمدة طويلة من الزمن في الولايات المتحدة الامريكية و با لممارسة ، ان لم يكن بالمبادئ كان الرجل الابيض البروتستنتي فقط " يولد حراً و متساو " و تشير الكتابات الى انه في اواخر التسعينات بل و حتى بداية القرن العشرين كان للرجل الفقير من الاصول غير الشريفة من مسلمي الشرق الاوسط فرصة افضل للوصول الى القمة من اي مكان من العالم المسيحي . بضمنها الولايات المتحدة و فرنسا ما بعد الثورة . فالمساواة ، اذاً كانت مبدأ يمكن تفهمه ، و لكن ماذا عن كلمة التحرر او الحرية التي وردت عند بونابرت ؟ لقد سببت حيرة كبيرة بين المصريين ، فلم يكن لهذه الكلمة في العربية في ذلك الوقت ولفترة بعدها اي معنى سياسي . لقد كانت مصطلحاً قانونياً او شرعياً فالإنسان حرٌّ ما لم يكن عبداً و تحريره يعني عتقه من العبودية . وفي العالم الاسلامي ، على خلاف ما في العالم الغربي ، لم تكن

الفرنسيون عن الحرية فأنهم يعنون ما نقصده نحن المسلمون " بالعدالة " وقد كان ذلك عين الصواب فهذا مايعنيه الفرنسيون والغرب عموماً بالحكومة الصالحة والحكومة الطالحة بتعبيرهم الحرية والعبودية ، و كذا هو مفهوم المسلمين عن العدل والظلم . ان هذين المفهومين المتناقضين يساعدان على تسليط الضوء على المناظرات السياسية التي بدأت في العالم الاسلامي مع الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ واستمرت منذ ذلك الوقت بأشكال مختلفة متميزة .

العدالة للجميع

و كما قال الشيخ الطهطاوي ، وهو محق في ذلك ، ان المفهوم التقليدي للحكومة الصالحة في الاسلام يعبر عنه بمصطلح " العدالة " و يعبر عنه بعدة بكلمات مختلفة في العربية و لغات المسلمين الاخرى واكثرها شيوعاً هي " العدل " و المقصود " العدل وفق القانون " و المقصود بالقانون هو (القانون الالهي اي الشريعة كما كشفت للنبي وللمجتمع الاسلامي) . ولكن ما هو المفهوم المناقض للعدالة ؟ وما هو النظام الذي لايلبي معايير العدالة ؟ ولكي ينطبق الفهوم الاسلامي الاصولي على الحاكم ينبغي ان يلبي مطلبين هما ؛ ان يكون قد اكتسب السلطة بالحق وان يمارسها بالحق . وبكلمة اخرى ينبغي ان لا يكون مغتصباً لها ولا مستتبداً باستعمالها . ولا بأس ان يلبي احد المطلبين دون الآخر على الرغم من ان المفروض تلبيتهما معاً . ان فكرة الاسلام للعدالة مدعمة بالوثائق بصورة جيدة وتعود الى عهد النبي .

ان حياة النبي محمد كما دونت وكما انعكست في سيرته تقع في مرحلتين : الاولى حياته في موطنه الاصيلي مدينة مكة معارضاً نظامها ومباشراً بدين جديد ومبدأ جديد يتحدى حكم الاقلية الوثنية التي تحكم مكة . ان آيات القرآن والاحاديث المتعلقة بسيرة النبي تؤرخ الفترة المكية هذه حيث حمل رسالة المعارضة والتمرد وما يمكن تسميته بالثورة ضد النظام القائم . ثم جاءت الهجر المشهورة ، حيث هاجر من مكة الى المدينة التي اصبح فيها ماسكاً بالسلطة وليس الضحية . لقد اصبح محمد خلال حياته رئيساً لدولة وتصرف تصرف رؤساء الدول . شرع القوانين ونفذها ، جمع الضرائب وشن الحروب ، عقد السلام وبكلمة واحدة لقد " حكم " . في هذه الفترة لم تكن الاعراف السياسية والحكم السياسي والقيادة السياسية تركز على كيفية مقاومة او معارضة الحكومة كما حدث في فترة مكة ولكن التركيز انصب على كيفية ادارة الدولة . وهكذا نرى انه منذ البدايات الاولى لكتابات المسلمين وتشريعاتهم وثقافتهم السياسية كانت هناك فترتان للسيرة احدهما تبدأ بالفترة المكية وما يمكن ان نسميه بالفترة (الحيوية) والآخرى تبدأ بالفترة المدنية ، (المستقره) . والقرآن قد بين واجب الطاعة " طاعة الله وطاعة النبي وطاعة اولي الامر " ثم فصلت الاحاديث النبوية هذه الطاعة وحدودها . فهناك حديثان منسوبان للنبي ومتفق عليهما ذاتا دلالة مهمة ، الاول يقول " لاطاعة على خبيثة " . بمعنى آخر إذا كانت اوامر الحاكم

مخالفة للشريعة فلا يستوجب طاعته بل يستوجب عدم الطاعة . وفي هذا أكثر من حق الثورة الذي يتضمنه الفكر السياسي الغربي ، انه واجب الثورة او على الأقل عدم الطاعة والمعارضة للسلطة القائمة . واما الحديث الثاني فهو (لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق) ومرة ثانية يظهر لنا بوضوح تحديد صلاحيات الحاكم ، اي نوع من الحكام كان . وهذان الحديثان احدهما مدني والآخر مكي . ثابتت صحتها من خلال التأريخ المدون للدول الاسلامية المتعاقبة والفكر السياسي الاسلامي والممارسات العملية . اهتم المسلمون ومنذ البدايات الاولى بالمشكلات السياسية والحكومية ، واكتساب السلطة وممارستها ، والخلافة ، والمشروعية وخصوصاً حدود هذه الصلاحيات الحاكمة.

وقد تم تدوين كل هذه المواضيع في مؤلفات قيمه ومتنوعة في السياسة . فهناك المؤلفات النظرية ، والمؤلفات الشرعية والتي يمكن تسميتها بالقانون الدستوري

للاسلام والمؤلفات التطبيقية وكتب الجيب والمراجع السريعة التي يؤلفها موظفون مدنيون لموظفين مدنيين تدور حول ادارة اعمال الحكومة يوماً بيوم . وبالطبع فهناك كتب الفلسفة التي تعتمد كثيراً على الفلسفة اليونانية القديمة التي ترجمت وطبعت وكانت هناك نسخ اسلامية لجمهورية افلاطون وسياسات ارسو طاليس .

ومع مرور الوقت تحول الاستقرار ونمت سيطرة السلطة نحو الاقوى فأصبحت الصعوبة اكثر في السيطرة على هذه القيود

والمحددات بالنسبة للحكم الفردي الذي سلف وصفه بالكتاب المقدس والشريعة . لذا أكدت المؤلفات الموضوعية على الحاجة الى النظام . وهناك كلمة يتكرر استعمالها كثيراً في المناقشات وهي الفتنة . وهي تعبير عربي يمكن ترجمته الى "العصيان" او "الفوضى" او "الاضطراب" او حتى "الفوضوية" في سياقات معينة، واستمرت القضية تعالج مراراً وتكراراً حتى قيل ان الاستبداد افضل من الفوضى . وذهب آخرون الى ابعد من ذلك حيث قالوا ان ساعة من - بل وحتى دقيقة - من الفوضى اشد سوءاً من مئة عام استبداد . هذه احدي وجهات النظر ولكنها ليست الوحيدة . ففي بعض الاوقات والاماكن ضمن العالم الاسلامي فرضت الهيمنة المطلقة . وفي اوقات اخرى واماكن اخرى رفضت باصرار تام .

النظرية أراء التأريخ

تؤكد الاعراف الاسلامية بقوة على نقطتين متعلقتان بأدارة الحاكم للحكومة ، الاولى هي الحاجة للمشاركة ، وقد اوصى بها القرآن بوضوح تام كما انها ذكرت مراراً في السنة النبوية ، وخلافها الاستبداد وهو مصطلح فني ينطوي على مضامين سلبية جمّة ، وتعني فيما تعنيه الشر والخطيئة ، وعند اتهام الحاكم بالاستبداد فأنها بلا شك دعوة الى عزله .

مع من يتشاور الحاكم ؟ عملياً ، مع مصالح ثابتة معينة في المجتمع ومنذ البدايات كان التشاور مع رؤساء العشائر امراً مهماً وبقي ذلك في بعض الأماكن . فمثلاً في العربية السعودية واجزاء من العراق (و اقل من ذلك

والحادثة ، كان يقصد بها ادخال انظمة الاتصال الغربية ومستلزمات الحرب والحكم ووسائل السيطرة والهيمنة . فأن سلطة الدولة تتزايد بقوة عند استعمال وسائل ومعدات السيطرة والمراقبة وتقوي الحاكم اكثر من قدرات الحكام السابقين حتى انه في نهاية القرن العشرين كان لاي حاكم صغير في دولة صغيرة او حتى شبه دولة - قوة واضحة تفوق ما كان يتمتع به اقوى الخلفاء والسلطين في الماضي .

وربما كانت اسوء نتائج الحادثة هي الغاء القوى الوسطى في المجتمع - ملاك الاراضي ، تجار المدينة ، رؤساء القبائل ... وآخرين، وهذه في النظام التقليدي لها القدره على تحديد سلطة الدولة . ان هذه القوى الوسطى قد أضعفت بالتدريج وصارت اقرب للانقراض . وبهذا تقوى الدولة من ناحية وتزداد اتساعاً، وتضعف التحديدات والسيطرات من ناحية اخرى .

وقد وصفت هذه العملية وشخصت في افضل كتاب في القرن التاسع عشر عن الشرق الاوسط و مؤلفه ضابط في البحرية البريطانية واسمه Adol Phus Slade كان مستشاراً للاسطول التركي و أمضى معظم حياته المهنية هناك . لقد وصف عملية التغيير هذه بصورة مفعمة بالحيوية و ناقش ما سماها طبقة النبلاء القديمة و أولهم ملاك الاراضي الريفية ، وبرجوازية المدينة و طبقة النبلاء الجديدة وهم الذين يشكلون جزءاً من الدولة ويستمدون سلطتهم من الحاكم و ليس من مواطنيهم " فطبقة النبلاء القديمة عاشت في

في الدول المتمدنة مثل مصر وسوريا) فالحكام يستشيرون رؤساء المناطق الريفية ، والقوى المتنفذة والقوى المختلفة الاخرى في المدينة ، وكبار التجار، والكتّاب (الطبقات المتنفذة غير الدينية ، والقائمين بالخدمة المدنية -الصرفية) المراجع الدينية والمؤسسات العسكرية بضمنها الجامعات الحكومية العريقة مثل الانكشاريين في الامبراطورية العثمانية . ان اهمية هذه القوى يكمن اولاً و قبل كل شئ في انها تتمتع بقوة حقيقية ، فأنها تستطيع بل وتفعل احياناً المشاكل والاضطرابات الحقيقية للحاكم بل وحتى اقالته . كما ان قادة الجامعات هذه - رؤساء العشائر ، و الشخصيات البارزة ، القادة الدينيون ، نقباء المهن و قادة القوى العسكرية - جميعهم غير معينين من قبل الحاكم بل انبتقوا من خلال هذه الجامعات .

العودة قليلاً الى الوراء لنرى كيف وصلت حكومات الشرق الاوسط الى وضعها الحالي

لقد حدث التغيير على مرحلتين بدأت اولاهما بغزو نابليون بوناپرت واستمرت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين عندما شعر حكام الشرق الاوسط بالحاجة الملحة للالتحاق بالعالم المعاصر محاولين تحديث مجتمعاتهم ابتداءً بحكوماتهم نفسها ولم تجري هذه التحولات من قبل الحكام المستعمرين الذين تعمدوا ان يكونوا محافظين بحذر ، ولكن التحولات حدثت من قبل الحكام المحليين انفسهم - سلاطين تركيا - الباشوات ، خديو مصر ، الشاهنشاه في بلاد فارس - وكانت نواياهم حسنة ولكن بنتائج كارثية.

ممتلكاتها الخاصة " و يستنتج " ان الدولة تعتبر من ممتلكات النبلاء الجدد " و هذه حقيقة واضحة وصياغة رجل ذو بصيرة متميزة على ضوء التطورات الحالية والاحقة .

اما المرحلة الثانية من الثورة السياسية في الشرق الاوسط فيمكن تأريخها بدقة ففي سنة ١٩٤٠ استسلمت الحكومة الفرنسية الى المانيا النازية فالحكومة المتعاونة الجديدة تم تشكيلها في منطقة مياها اسمها فيشي انتقل الجنرال شارل ديغول الى لندن ، و شكل لجنة فرنسا الحرة فالامبراطورية الفرنسية لم تكن بمتناول ايدي الألمان حتى تلك الفترة . اما حكام المستعمرات و الدول المستقلة التابعه لها و كانت حره في قرارها ، ان يبقوا مع حكومة

Vichy او يندمجوا مع ديغول ، فقد كانت حكومة فيشي اختيار غالبيتهم . و بشكل خاص حكام اقليم سوريا - لبنان الخاضع للأنتداب الفرنسي في قلب الشرق العربي . وهذا يعني ان سوريا - لبنان مفتوحة تماماً للنازية الذين دخلوها وجعلوها قاعدة رئيسة لحماتهم الدعائية ونشاطاتهم في العالم العربي .

وفي ذلك الوقت طرحت الاسس الايديولوجية لما سمي فيما بعد بحزب البعث ، الذي تبنى الافكار والاساليب النازية بالنسبة لوضع الشرق الاوسط . فالايديولوجية الناشئة تؤكد على العروبة والقومية ونوع من الاشتراكية . ولم يتأسس الحزب بشكل رسمي حتى نيسان ١٩٤٧ . ولكن التقارير في ذلك الوقت والمصادر الاخرى تبين ان فترة نازية قد بدأت هناك . ومن سوريا بدأ الألمان

والبعثيين الاوائل بتشكيل نظام نازي في العراق و كان يقوده رجل مشهور سئ الشخصية هو رشيد عالي الكيلاني .

لقد تم اسقاط نظام رشيد عالي الكيلاني بعد حملة عسكرية قصيرة شنتها بريطانيا في الفترة بين ايار - حزيران عام ١٩٤١ بعدها غادر رشيد عالي الكيلاني الى برلين حيث امضى بقيت فترة الحرب ضيفاً على هتلر مع صديقه مفتي القدس الحاج امين الحسيني . و قامت بريطانيا و فرنسا الحرة بارسال قواتهما الى سوريا و بذلك تحولت الى السيطرة الديغولية ، وفي السنوات التي اعقت نهاية الحرب العالمية الثانية غادرت بريطانيا و فرنسا و بعد فترة قصيرة دخل السوفييات اليها لقد تحول قادة حزب البعث من النموذج النازي الى النموذج الاشتراكي بسهولة دون حاجة الا الى قليل من التعديلات و لم يكن هذا الحزب بالمفهوم الغربي للتنظيم يسعى للفوز بالانتخابات واحراز الاصوات . فهو حزب بالمفهوم النازي والاشتراكي جزءاً من جهاز حكومي ويهتم بشكل خاص بزراع فكر الحزب والمراقبة والقمع ، و قد واصل حزب البعث في سوريا وحزب البعث المنفصل في العراق عملهما على هذا النهج .

و منذ عام ١٩٤٠ و بعد وصول السوفييات اخذ الشرق الاوسط بأنماط الحكم الاوربي بشكل اساسي : الانظمة الفاشية و النازية و الشيوعية . و لكن الحديث عن الدكتاتوريات كأسلوب قديم متأصل في الحياة في ذلك الجزء من العالم، ببساطه، هو حديث غير صحيح . فهو يظهر تجاهلاً لماضي العرب و احتقاراً

لحاضرهم و اهمالاً لمستقبلهم . إن نموذج الحكم الذي سار عليه صدام حسين - وهو النظام الذي سار عليه بعض الحكام في العالم الإسلامي - كان نظام حديثاً وبعيداً جداً عن اسس الحضارة الإسلامية . وهناك حكام اكثر عراقية وحفاظاً على التقاليد تستطيع شعوب الشرق الاوسط الاعتماد عليهم.

الصعود والنزول (لعبة الحية والدرج)

هنالك ، بلاشك ، معوقات عديدة واضحة امام تطور الديمقراطية في الشرق الاوسط فالمعوق الاول والاكثر وضوحاً هو نموذج الحكم الاوتوقراطي المستبد المندثر حالياً . ان مثل هذا الحكم يعتبر غريباً وليس له جذور لدى العرب الاوائل ولا في الماضي الإسلامي . ولكنه يعود الى قرنين مضت وازداد رسوخاً مسبباً بذلك عوائق خطيرة . اضافة لذلك ، هناك عائق تقليدي وهو غياب فكرة المواطن بصيغة وجوده كعضو متحرر ومشارك في كيان مدني ، في الفكر السياسي الاسلامي التقليدي نظرية وتطبيقاً .

وتمتد جذور هذه الفكرة الى الادبيات اليونانية المدنية التي كانت مركزاً للحضارة الغربية منذ القدم وحتى وقتنا الحاضر . وفكرة مشاركة المواطنين لاتعني المشاركة في اختيار الحكم وانما المشاكة في ادارة الحكم ، وهذه الفكرة ليست من اعراف الحكم الاسلامي . وفي الايام العظيمة للخلافة كانت هناك مدن مزدهرة ، ولكن لاتتمتع بوضع قانوني كهذا ولابأي شئ يميزها بالحكومة المدنية . مدن تتألف من كيانات متجاوزة تشكل بنفسها مركزاً مهماً لوحدها وولائها .

وغالباً ماكان هؤلاء المتجاوزون يعتمدون على الولاءات العرقية والعشائرية والدينية أو الطائفية او حتى الحرفية . لحد هذا اليوم لاتوجد كلمة عربية مرادفة لكلمة (Citizen) والكلمة المستعملة في الجوازات وبقية المستندات هي كلمة (مواطن) . والمعنى الحرفي لها هو (Compatriot) اي ابن البلد . ومع فقدان المواطنة يتغيب التمثيل المدني . ومع ان الفئات الاجتماعية المختلفة تختار قياداتها بنفسها خلأل هذه المرحلة فأن فكرة اختيار الأشخاص لتمثيل المواطن بهيئة او مجلس كانت غريبة بالنسبة للمسلمين خبره وتطبيقاً . ومع ذلك فان العناصر الايجابية في التاريخ والفكر الاسلاميين قد تساعد في تطوير الديمقراطية . وجدير بالملاحظة ان فكرة حكومة مقبولة و توافقية و محددة قد تعود موضع خلاف الآن . ان الرفض التقليدي للاستبداد قد اكتسب اليوم قوة جديدة و مطلباً عاجلاً . و ربما تكون اوربا قد نشرت فكرة الدكتاتورية ، و لكنها نشرت بالوقت نفسه فكره مقابلة لها و هي التمرد الشعبي ضد الدكتاتورية .

ان رفض الاستبداد امرٌ مألوف في الكتابات التقليدية و المعاصرة وقد اكتسبت الان تأثيراً قوياً . وقد نهض المسلمون مرة اخرى وفي بعض الحالات صاروا يمارسون فكرة التشاور بينهم . و يرى المتدينون ان هذه التطورات تستند الى الشريعة المقدسة و العرف الإسلامي .

ويمكن رؤية هذا الانبعاث في افغانستان على وجه الخصوص اذ لازال

شعبها اقل تحضراً لذلك يجد من السهولة بعث الاعراف الجيدة للماضي العريق ، كما و يلاحظ عودة التشاور من قبل الحكومة مع مختلف اصحاب المصالح والمجموعات ال وهذا هو الغرض مما يسمى (Loya Jirga) اي (مجلس الوجهاء) الذي يتألف من نطاق واسع من الفئات المختلفة : العرقية ، العشائرية ، الدينية ، الاقليمية ، المهنية و الفئات الاخرى . و هناك دلالات على وجود حركة مترددة باتجاه التعددية في الشرق الاوسط عموماً . و هناك ، ايضاً ، تاثيرات ايجابية اخرى قيد التطبيق وفي بعض الاحيان تكون بصيغ متميزة .

و ربما كان المؤشر الاكثر اهمية على التطور هو اعتماد وسائل الاتصالات الحديثة . فالصحف المطبوعه والجراند والتلغراف و الراديو والتلفزيون كل هذه الوسائل ساهمت في تحولات الشرق الاوسط . لقد كانت تكنولوجيا الاتصالات سابقاً من ادوات الاستبداد حيث تقدم للدولة سلاحاً جديداً فعالاً يخدم اعلامها وسيطرتها .

ولكن هذه النزعه لاسبيل لأستمرارها بالتأكيد، ففي الفترة القريبه جداً و خصوصاً مع ظهور الانترنت و المحطات التلفزيونية الفضائية و الهواتف النقالة بدأت تكنولوجيا الاتصالات تعطي آثار عكسية . و قد اصبح الان واضحاً وبشكل متزايد ان احد الاسباب الرئيسية لأنهييار الاتحاد السوفياتي هي الثورة المعلوماتية . ان النظام السوفياتي السابق كان يركز بدرجة كبيرة على السيطرة على الانتاج والتوزيع وتبادل

المعلومات والافكار و لما تطورت وسائل الاتصال العصرية لم يعد هذا الاسلوب قادر على الاستمرار ، فثورة المعلومات فرضت نفس المأزق بالنسبة للاتحاد السوفياتي كما فعلته الثورة الصناعية للدولة العثمانية و الامبراطوريات الاسلامية الأخرى ، فأما قبولها والامتناع عن التعامل معها بنفس الاسلوب القديم او رفضها و السقوط تدريجياً وراء شعوب العالم . لقد حاول السوفيات وفشلوا في التخلص من هذا المأزق ، و لازال الروس يعالجون العواقب .

لقد بدأت عملية موازية لها في بلدان الشرق الاوسط المسلمة وحتى ان بعض برامج التلفزيون الاعلامية التي تستخدم موجات الاثير تساهم في هذه العملية بصورة غير مباشرة وعن غير قصد و ذلك من خلال تقديم انواع الكذب الذي يثير الشك والتساؤل . فالتلفزيون ، أذاً ، جلب لمواطني الشرق الاوسط مشاهد كانت مجهولة سابقاً مثل النقل الحي لمناظرات تلفزيونية بين الاتجاهات المتعارضة . و في بعض الاماكن يشاهد الشباب التلفزيون الاسرائيلي . كما يرون شخصيات اسرائيلية بارزة "يضربون الطاولة ويصرخ بعضهم بوجه الآخر" . (لقد وصف احد المشاهدين العرب هذا المشهد بالعجيب) كما يشاهدون احياناً العرب الاسرائيليين وهم يناقشون داخل الكنيست الاسرائيلي وهم يدينون الوزراء الاسرائيليين وسياساتهم . ان المشاهد الحية والخلافات الديمقراطية الجارية والمشاهد غير المؤلوفة لاناس يتناقشون بلا تكلف وبلا تشنج بل نقاشاً منظماً في الافكار

والاهتمامات المختلفة . كل ذلك كان له تأثير مهماً .

ان للاتصالات الحديثة تأثيراً آخر في جعل مسلمي الشرق الاوسط يدركون بألم كيف ان الامور السيئة تؤدي ال وضع خطأ . ففي الماضي لم يكونوا واعين للاختلافات بين عالمهم وبقية انحاء العالم ، فهم لم يدركوا بعد الى اي مدى هم متخلفون ليس عن الغرب المتقدم فحسب وانما عن الشرق المتقدم ايضاً - واولهم اليابان ثم الصين والهند وكوريا الجنوبية وجنوب شرق آسيا وعملياً عن كل مكان آخر في العالم من ناحية المستوى المعيشي والانجازات وعلى مستو التطور الانساني والثقافي وما يؤلم اكثر ان هذه الاختلافات تعبر عن تباينات بين شعوب الشرق الاوسط نفسه .

والآن فإن قضية الديمقراطية اصبحت اكثر صلة بموضوع العراق منه بأي دولة اخرى في الشرق الاوسط . فبالاضافة الى العوامل العامة فإن العراق سيستفيد من ميزتين محددتين تخصان ظروفه ، الاول ترتبط بالبنى التحتية والتعليم . فمن كل الدول التي استفادت من عائدات النفط في العقود السابقة كان عراق صدام اكثرهم انتفاعاً بها ، فقد طور قادته طرق البلاد وجسوره ومرافقه وخصوصاً شبكة المدارس والجامعات وبمعايير عالية اكثر من اي بلد في المنطقة . وهذه المرافق كغيرها من الامور الاخرى في العراق قد دمرت من قبل نظام صدام . حتى في اسوء الظروف كانت الطبقة الوسطى المتعلمة يمكنها ان تخطط لتعليم

اطفالها وإن نتائج هذه العملية يمكن ان تشاهد على المواطنين العراقيين الآن .

اما الميزة الاخرى فهي موقع المرأة والتي تمتاز بأنها افضل من غيرها في المناطق الاخرى من العالم الاسلامي ، انها لا تتمتع بحقوق اكبر ولكن من ناحية امكانية الوصول واتاحة الفرص والحقيقة ان كلمة " حقوق " هنا كلمة بلا معنى في هذا السياق . وفي ضل اجراءات صدام دخلت المرأة مجال التعلم والتعليم العالي ودخلت مجالات العمل بشكل مماثل لما في العالم الاسلامي .

في الغرب كانت حرية المرأة سبباً رئيسياً للتقدم الكبير الذي حصل في المجتمع . فالمرأة بالتأكيد ستكون جزءاً مهماً ، بل اساسياً من مستقبل الديمقراطية في الشرق الاوسط .

الاخطار الاساسية

إن التهديد الاساسي لتطور الديمقراطية في العراق وبالتالي في الدول العربية والعالم الاسلامي لا يمكن في أية خاصية اجتماعية موروثة او سمات شخصية و انما من الجهود المعروفة المبذولة لضمان افشالها . فخصوم الديمقراطية في العالم الاسلامي ياتون من مصادر مختلفة و ذات آيديولوجيات حادة لتناقض فهناك تحالف نفعي قائم بين مجموعتين مختلفتين لهما مصلحتان متباعدتان ولو ان احدى المجموعتين جمعت بين كلتا المصلحتين فأنها ستتأثر فوراً بالديمقراطية - الطاغية صدام في العراق و الطغيات في المنطقة - و ان اتباع هذين المتوازيين هو محاولة لتجديد القديم و الحفاظ على الجديد و

في هذه الحالة تكون هذه المجموعة مدعومة ،على الأقل، بدعم ضمني من قوى خارجية - حكومية ، تجارية ، عاطفية و غيرها - من اوربا، اسيا ، و اماكن أخرى ذات مصلحة عملية او عاطفية في نجاحها .

و الاكثر خطورة هم من يسمون بالاصوليين الاسلاميين الذين يرون ان الديمقراطية هي جزء من الشيطان الاكبر المنبعث من الغرب ، سواء أكانت بزيتها القديم المتمثل بالهيمنة الامبريالية او بشكلها الحديث المتمثل بالتغلغل الثقافي . فالشيطان في القرآن هو " المغوي الماكر الذي يوسوس في قلوب الناس" فالمجددون يلتجؤون الى النساء والى الشباب بشكل عام و يظهرون و كأنهم يضربون صميم النظام الاسلامي - الدولة و صفوف المدارس و الاسواق وحتى العائلة - فالاصوليون يدرسون المتغربين و مخدوعهم و اتباعهم فهؤلاء المتغربون (الذين انساقوا وراء الحضارة الغربية) لا يعيقون تقدم الاسلام نحو الانتصار النهائي في العالم فحسب وانما يعرضوه للخطر في عقر داره . و بعكس الاصلاحيين، فأن الاصوليين لا يرون ان مشكلة العالم الاسلامي في عدم اهليته بالحقا بركب الحداثة ولكن المشكلة بالانغماس بالحداثة المفرطة - بل وحتى بالحداثة نفسها. بالنسبة لهم تعتبر الديمقراطية تدخل فضولي من الكفر و الاجانب و جزء من الشيطان الاكبر و اتباعه .

و يرد الاصوليون على النظام الغربي و نفوذه الاجتماعي و الثقافي بتجميع قوتهم منذ مدة طويلة ، و عبروا عن قوتهم بثقافة ذات

تأثير كبير و متزايد وبسلسلة من الحركات الناشطة و الاكثر بروزاً حركة الاخوان المسلمين التي تأسست عام ١٩٢٨ في مصر . أصبح الاسلام السياسي لأول مرة عنصراً دولياً كبيراً عام ١٩٧٩ مع قيام الثورة الايرانية . فكلمة " الثورة " قد أُسيء استعمالها في الشرق الاوسط و ساهمت في تسمية وتبرير استخدام العنف على أعلى مستوى . و لكن ما حدث في ايران كان يشكل ثورة حقيقية وتغييراً رئيسياً ينطوي على تحد ايديولوجي مهم وتحول اساسي في المجتمع، احدث صدمة هائلة في كل العالم الاسلامي ثقافياً و أخلاقياً و سياسياً فالعملية التي بدأت في ايران عام ١٩٧٩ كانت ثورة بنفس المعنى الذي كانت عليه الثورة الفرنسية و الروسية . و بشكل يشابه اجراءاتها، سارت الثورة الايرانية عبر مراحل مختلفة من النزاع الداخلي و الخارجي والتغيير و يبدو الآن انها قد دخلت في المرحلة النابليونية او بشكل ادق الستالينية .

لقد وصل النظام الشيوقراطي في ايران الى السلطة عبر موجة من الدعم الشعبي يغذيه استياء عام ضد النظام السابق و سياسته و تداعياته . ثم بدأ النظام يفقد شعبيته بصورة متزايدة عندما اظهر الحكام الملالي انفسهم على انهم ليسوا الا حكاماً فاسدون ظالمون حالهم حال الزمر الحاكمة في الدول الاخرى في المنطقة . و هناك عدة دلائل في ايران على بروز تيار من عدم الرضا .

و البعض يبحث عن تغييرا راديكاليا بصيغة العودة الى الماضي . وآخرون وهم

تحررت و أصبحت تهدد حتى بيت آل سعود
نفسه .

إن الانتصار الاول للمتطرفين السنة كان
سقوط الاتحاد السوفياتي و الذي اعتبروه
انتصاراً لهم - وهو امر ليس ببعيد - ففي
نظرهم أن الاتحاد السوفياتي لم ينهزم في
الحرب الباردة التي شنها الغرب ، و انما بجهد
المسلمين الذي شنوه من خلال مقاتلي حرب
العصابات في افغانستان . عندما قام اسامة
بن لادن و كتائبه العسكرية بهذا العمل
العسكري فأنهم قد دمروا واحداً من آخر
قوتين عظيمتين كافرتين بل هي الاكثر
صعوبة و اكثر خطورة من بين الاثنتين .

ان التعامل مع الامريكان المدللين و
المنحطين اكثر سهولة كما يعتقدون . ان
حروب الامريكان وتصرفاتهم كانت تضعف
هذا الاعتقاد تارة وتقويه تارة أخرى .

وقد يمتاز الاصوليون في انتخابات حقيقية
بميزات جوهرية عديدة اكثر من المعتدلين و
الاصلاحيين . اولها انهم يتكلمون بلغة مألوفة
لدى المسلمين . اما الاحزاب الديمقراطية فأنها
تبشر بايديولوجية غريبة عنهم و يستخدمون
في الغالب مصطلحات غير مألوفة لدى "
الشارع المسلم " . و الاحزاب الاصولية من
ناحية اخرى تستخدم مفردات مألوفة و
يستحضرون قيم معروفة لانقاذ كل من
العلمانيين و النظم السلطوية و يعرضون
البديل . ولنشر هذه الرسالة يستثمر
الاصوليون بكفاءة عالية شبكة تلنقى و تتصل
مع بعضها عن طريق الجوامع وتتحدث من
على المنابر .

عدد كبير جداً يضعون آمالهم بتحقيق
ديمقراطية حقيقية . لذلك فإن حكام ايران
قلقون جداً من التغيير الديمقراطي في
العراق . فالغالبية في العراق هم من الشيعة
كأيران . فمجرد وجود الديمقراطية الشيعية
في الجهة الغربية لايران سيفرض تحديات
تشكل في الحقيقة تهديداً اخلاقياً لحكم الملاي .
لذا فأنهم يعملون كل ما بوسعهم لمنع او حرف
هذه الديمقراطية .

و الاكثر اهمية في الوقت الحاضر
الاصوليون السنة والعنصر المهم في حرب
السنة المقدسة هو تصاعد و انتشار - و في
بعض المناطق - هيمنة الوهابية . و الوهابية
مدرسة اسلامية نشأت في نجد مركز الجزيرة
العربية في القرن التاسع عشر ، و قد سببت
الكثير من المشاكل لحكام العالم الاسلامي في
ذلك الوقت وقد تم وئدها و احتوائها . ثم
ظهرت مجدداً في القرن العشرين و اكتسبت
اهميتها عندما ارتبط بيت آل سعود و رؤساء
العشائر المحليين بالحركة الوهابية و احتلوا
المدينة و مكة المقدستين و اسسوا الملكية
السعودية فأكتسبت بذلك عاملين زادا في
اهميتها . الاول هو ان السعوديين الوهابيين
يحكمون الآن المدن المقدسة و لذلك فهم
يهيمنون على الحج السنوي الذي يمنحهم هيبة
كبيرة و نفوذ في العالم الاسلامي . اما العامل
الثاني فهو اكتشاف و استغلال النفط حيث
وضع ثروات هائلة تحت تصرفهم .

وماذا يمكن ان يفعل حدث كهذا في بلد كان
على الهامش ثم اصبح ذا تأثير عالمي غير هذا
. و الآن فإن القوى التي كانت تقوى و تغذى

لم يستطع اي من الاحزاب العلمانية الاقتراب منهم بشكل يستحق المقارنة فالثوار المتدينون و حتى الارهابيون قد حصلوا على الدعم من خلال محاولاتهم الحقيقية المتتالية للتخفيف من معانات عامة الناس و هذا الاهتمام بالناس من قبلهم هو عكس ما عليه اصحاب السلطة و النفوذ في الشرق الوسط ، و مثال ذلك الثورة الايرانية فمن الواضح ان الميليشيات الدينية طالما هي في السلطة فهي ليست بأفضل من هؤلاء، بل هي اسوء، احياناً ،من السلطة التي انقلبوا عليها و حلوا محلها . و لكن حتى ذلك ا لحين فأن كلا المفهومين الحاليين والامال المستقبلية للناس تعمل لصالحهم .

و اخيراً ، فأن الامر الاكثر اهمية هو ان الاحزاب الديمقراطية ترتبط مع بعضها بشكل يسمح للاصوليين بالعمل بحرية بينما لايعاني الاصوليون من مثل هذه المشكلة فهم على العكس اذاكانوا في السلطة فأن مهمتهم هي قمع التحريض على الفتنة و الشرك و الكفر . و على الرغم من هذه الصعوبات فلازال هناك امل على وجه الخصوص في الانتخابات العراقية العامة في كانون ثان . فملايين العراقيين قد توجهوا الى مراكز الاقتراع ووقفوا بصفوف طويلة ليدلوا بأصواتهم و هم يدركون انهم يجازفون بحياتهم في كل لحظة من هذه العملية ، و هذا منجز حقيقي بكل تفاصيله و يمكن ملاحظة تأثيره على دول الجوار العربية و غير العربية ، لقد ربحت الديمقراطية العربية المعركة ولكنها لم تربح الحرب بعد ، إذ لاتزال تواجه العديد من

المخاطر من كلاً من الأعداء المتربصين و الاصدقاء المترددين و غير الواقعيين . لقد كانت معركة رئيسية حقاً وقد يمكس الناخبون العراقيون بمفتاح التحول والتغيير في الشرق الاوسط بشكل لا يقل اهمية عن وصول الجنرال بونابرت و الثورة الفرنسية الى مصر منذ اكثر من قرنين مضت . ان اقامة النظام الاجتماعي و السياسي الديمقراطي في العراق او اي مكان آخر في الشرق الاوسط لن يكون سهلاً و لكنه ممكناً : هناك اشارات متزايدة بأنها قد بدأت فعلاً . في الوقت الحاضر ، هناك نوعان من المخاوف تتعلق بإمكانية اقامة الديمقراطية في العراق . الاول هو الخوف من عدم نجاحها و هذا ما عبر عنه العديد في الولايات المتحدة و هو الرأي السائد في اوربا ايضاً . و الخوف الثاني وهو الاكثر الحاحاً بالنسبة للدوائر الحاكمة في الشرق الاوسط هو انها قد تنجح . و يظهر ان المجتمع الحر في العراق سيشكل تهديداً معنوياً و اخلاقياً للعديد من حكومات المنطقة بظمنهم اعداء ل واشنطن و حلفاء لها في الظاهر .

ان نهاية الحرب العالمية الثانية فتحت الطريق للديمقراطية في دول المحور السابقة . و ان نهاية الحرب الباردة وضعت معايير الحرية و التحرك باتجاه الديمقراطية في معظم ممتلكات الاتحاد السوفياتي السابقة . لقد اصبح ممكناً الآن ، على الاقل ، جلب العدالة و الحرية للناس المعذبة طويلاً في الشرق الاوسط .